

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
 الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٨﴾ أَوْ يُلْقَى
 إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ
 تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ
 الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

كنز: الكنز: المال المدفون في الأرض؛ وقيل: اسمٌ للمال إذا أُخْرِزَ في وعاء؛ الذهب؛ الفضة؛ ما يُخْرِزُ فيه المال كالمخزن والصدوق. (الأقرب)

مسحورا: سحره: عمل له السحر وخذعه. وسحر عنه: تباعد. وسحر فلانا عن الأمر: صرفه (الأقرب)

وورد في المفردات: "وسُمُّوا الغدَاءَ سحرًا من حيث إنه يَدُقُّ ويلطَّفُ تأثيرُهُ".
فالمسحور يعني: (١) الذي سُحِرَ وخُدِعَ (٢) الذي أُبْعِدَ (٣) الذي أُعْطِيَ
الطعام والرشوة.

التفسير: أي انظر كيف يتكلمون عنك بكلام واه، فحينًا يقولون: ما هذا
الرسول الذي يأكل كما نأكل ويمشي في الأسواق كما نمشي؟ لو كان رسولاً
صادقاً لَمَلَكَ بساتين عظيمة يأكل منها، وعندها يمكن أن نؤمن به. مع أن الطعام لو
كان منافياً للنبوة فكيف يكون أكلُ أحدٍ من ثمار بستانه وفواكهه دليلاً على صدق
ادعائه النبوة. فثبت أن اعتراضاتهم ليست مبنية على أساس معقول، فلذا يتكلمون
بشيء مرة وبنقيضه مرة أخرى.

إن اعتراض الكفار على أكل الرسول ﷺ وشربه يدلُّ بوضوح على بُعدهم عن
الدين والروحانية، ولذلك اعتقدوا أن الواصلين بالله تعالى يظنون عاكفين على
عبادة الله ليل نهار مستغنين عن الأكل والشرب وغيرهما من الحاجات الطبيعية.
وهذه الفكرة نجدها عند الهندوس أيضاً، فمن القصص الشهيرة عندهم أن بوذا ظلَّ
عاكفاً على تأملاته عند شجرة الخيزران في مدينة "غايا" سنوات طويلة حتى نبتت
فسيلة جديدة من شجرة الخيزران ودخلت من تحته وخرجت من رأسه، دون أن
يشعر بما حدث لشدة تركيزه في تأملاته. وكأنهم يعتقدون أن بوذا قضى سنوات
وسنوات دون أكل أو شرب.

وقد تسرَّبت مثل هذه الأفكار في طائفة من المسلمين أيضاً لسوء حظهم، فظنوا
أن الواصلين بالله تعالى يجب أن يكونوا من أشد الناس وسخاً وقذاراً، فيجب أن لا
يستعملوا الطيبات من الأشياء والأطعمة، وإذا أكلوا طعاماً أضافوا إليه شيئاً من
القاذورات، ويجب أن يمتنعوا عن تقليم أظافرهم وتنظيف أسنانهم. وقد رسخت
هذه الأوهام عند هؤلاء الناس حتى بدأوا يعتبرون بعض الفقراء والمجانين الذين
يمشون عراة تماماً من أولياء الله تعالى. وستجد بين المسلمين اليوم أيضاً آفا ممن
يظن مثل هؤلاء المجانين واصلين بالله تعالى، ويعتبر أكل الحلال والاهتمام بالنظافة

منافياً للصالح والورع. فيقولون مثلاً: إن فلاناً من أولياء الله تعالى جلس في مكان كذا ولم يرفع رأسه أربعين سنة حتى صارت حفرة في الأرض في مكان جلوسه. ولما كان مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أيضاً قد ادعى النبوة التابعة للرسول ﷺ، فقد اعترضوا على طعامه أيضاً. كان حضرته عليه السلام يستعمل المسك والعنبر وزيت اللوز وغيرها من الطيبات لأمرض كان يصاب بها كثيراً، فكان هؤلاء الذين يعتقدون استعمال الطيبات منافياً للروحانية يستغربون من ذلك. فذات مرة كان الخليفة الأول عليه السلام راجعاً من المسجد الأقصى بقاديان بعد إلقاء درس للقرآن الكريم فيه، فلقبه في الطريق أحد كبار الهندوس - وكان قد تقاعد من منصب حاكم المحافظة، وكان بيته قد اشترته الجماعة فيما بعد وجعلته مكتباً لـ "صدر أنجمن أحمدية" * - فوقف أمام حضرته عليه السلام بكل احترام وقال: حضرة الشيخ، أريد أن أسألك سؤالاً أرجو ألا تتحرج منه. فقال حضرته: ولماذا أتضايق؟ تفضّل. قال: لقد سمعتُ أن حضرة الميرزا يستعمل المسك والعنبر وزيت اللوز، ويأكل الأرز المطبوخ مع اللحم! هل هذا صحيح؟ قال حضرته: نعم. فأصابته دهشة كبيرة بسماع هذا الجواب الذي لم يتوقعه، وقال: هل يجوز لأهل الله تعالى أن يأكلوا مثل هذه الأشياء؟ قال: إن ديننا يأمر أهل الله أيضاً بأكل الطيبات. فاشتد الهندوسي حيرة وذهب.

هذا ما أجاب به الخليفة الأول عليه السلام الذي كان يتكلم دائماً كلاماً مهذباً شريفاً. ولكن كان لنا أخ من مدينة "أمرتسر" وكان جريئاً في كلامه، فلقبه أحد الهندوس الذي كان قاضياً وقال له: كيف تزعم أن مؤسس جماعتكم مأمور من الله تعالى وتنسب إليه ألقاباً عديدة، مع أننا سمعنا أنه يأكل اللوز والفسقنق ولحم الفراخ

* "صدر أنجمن أحمدية" هي أكبر مؤسسة إدارية في الجماعة وقد أسسها المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

وغيرها من الأطعمة؟ فأجابه هذا الأخ وقال: لن أعترض عليك أبداً إذا بدأت تأكل البراز سخطاً على ما يأكله مؤسس جماعتنا.

فكما أن الناس يظنون في هذه الأيام أن استعمال الجيد من الطعام والشراب والعمور يتنافى مع سيرة أهل الصلاح، كذلك ظن الكافرون في ذلك الزمن فقالوا ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. إن هؤلاء الجهلة لم يفهموا أن الرسول يكون هادياً لأمته، فإذا هو لم يأكل الطعام كيف تعرف أمته آداب الأكل والشرب؟ وماذا يجب أن يؤكل وماذا يجب أن لا يؤكل؟ إن الطعام أهم جزء من التمدن الإنساني، وكان لا بد من تعليم جامع ونموذج كامل بصدد الأكل والشرب؛ فجعل الله تعالى نبيه ﷺ أسوةً للعالمين في هذا المجال أيضاً. فأعطى الناس من خلال أسوته ﷺ تعليماً حول الأكل والشرب يُعتبر أفضل منهج عمل للإنسانية حتى اليوم، ولا يمكن لإنسان أن يلقي العز والاحترام في المجتمع بإهمال هذه التعاليم والآداب.

واعترضهم على مشي الرسول ﷺ في الأسواق يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان إذا صار من أهل الله تعالى فيجب أن يتكفل الله حاجاته، ويجب أن لا يحتاج بعد ذلك إلى الأسباب المادية من أجل معيشته كغيره من الناس. وهذه الفكرة أيضاً موجودة لسوء الحظ عند فئة من المسلمين في هذه الأيام، حيث يقولون أن فلانا من أهل الله تعالى يسيطر على بعض الجن التي تحضر له أنواع الثمار في أي وقت شاء. وكأنهم لا يبذلون جهداً لكسب قوتهم، بل يسخرّون بعض الكائنات غير المرئية فتقوم لهم بما يحتاجونه. ونتيجة لهذه الأفكار الخاطئة نشأ عند هؤلاء القوم مفهوم خاطئ عن التوكل، فيظنون أن التوكل أن يفوض المرء أمره إلى الله كلية بدون أن يأخذ بالأسباب. وكأنهم يحملون نفس النظرية التي كان يحملها كفار مكة، أي أن أهل الله تعالى يجب أن يكونوا في غنى عن بذل الجهد من كسب الرزق وغيره من حاجات الحياة، بل يجب أن يأتيهم رزقهم من الغيب.

ثم إن الكفار يتقدمون خطوة أخرى ويقولون إذا كان الله تعالى قد بعث هذا الإنسان لهداية الدنيا فلم لم يرسل معه ملكاً؟ وقولهم هذا يماثل قول المسلمين اليوم

بأن المسيح عليه السلام ينزل من السماء واضعاً يديه على كتفي ملكين، وبرؤيتهما معه يدرك الناس أنه هو المسيح الحق، فيؤمنون به.

ثم يقول الكافرون إذا لم ينزل مع هذا الرسول ملك، فكان يجب على الأقل أن يكون معه كنز نراه فننضم إليه. ولكنه يطلب من الناس الصدقات والتبرعات بدلاً من أن يوزع عليهم مالاً، فكيف نصدقه؟

وللأسف أنه برغم أن الله تعالى قد سجل في القرآن الكريم هذا الاعتراض الذي تفوه به الكافرون وتبهمهم إلى خطئهم، إلا أن المسلمين لم ينتبهوا إلى هذا الأمر، فاعتقدوا أن المسيح والمهدي الموعود عليه السلام سيوزع على الناس الأموال المادية حتى لن يبقى في الدنيا فقير واحد. فكأنهم يقولون إنه سيملك خزائن الأرض كلها ويوزع على الناس قناطير مقنطرة من الذهب والفضة!

ثم قال الكفار: إذا لم ينزل عليه أي كنز، فكان من المفروض على الأقل أن يكون عنده بستان يأكل من ثماره؛ ولكنه لا يملك أي بستان، في حين أن رؤساءنا - الذين يعادونه من مكة والطائف وغيرهما من المدن - يملكون بساتين كبيرة.

وكانت هذه الحجج قوية في زعم الكافرين لدرجة أنهم كانوا يقولون كيف يكون هذا الشخص صادقاً، وكيف يصلح لهداية من يتبعه ما دام لا يملك هذه الأشياء؟ فثبت من ذلك أن الذين يتبعونه مخدوعون من كذبه وافترائه - والعياذ بالله.

لقد رد الله تعالى على مطاعنهم هذه في الآية التالية وأعلن أنهم لن يستطيعوا بهذه الاعتراضات أن يحولوا دون غلبة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل سيأتي يوم يتغلب عليهم محمد صلى الله عليه وسلم حتماً، ولن تنفعهم مطاعنهم هذه شيئاً.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَتَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١١﴾

التفسير: أي أنهم يطالبونك ببستان واحد، ولكن هؤلاء الجهلة لا يعلمون أننا قد أعددنا لك الكثير والكثير من البساتين الغناء والقصور الفخمة. إنهم ينظرون إلى حالة ضعف المسلمين وقلة حيلتهم فيعترضون عليك لأن المستقبل غائب عن أنظارهم. إنهم لا يدرون أن الله تعالى سينزع منهم البساتين التي يملكونها والكنوز التي يتباهون بها، ويعطيها محمداً ﷺ وأصحابه. وبالفعل أنجز الله تعالى وعده هذا، ووهب المسلمين ببركة تصديقهم بمحمد ﷺ بساتين عظيمة وقصوراً فخمة. فملكوا بساتين الطائف والنخلة، كما وقع في أيديهم ما كان يملكه قيصر وكسرى من خزائن ولآلئ وجواهر. وقد وقع كل ذلك بحسب ما أنبأ به الرسول ﷺ. فأثناء حفر الخندق حول المدينة عند غزوة الأحزاب وجد الصحابة صخرة لم يستطيعوا كسرها. فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأتى وأخذ المعول وضرب الصخرة بقوة، فخرجت منها شرارة، فكبر بصوت عال، فكبر الصحابة وراءه. ثم ضربها ضربة أخرى، فخرجت شرارة أخرى، فكبر النبي ﷺ، فكبر الصحابة وراءه. ثم ضربها ضربة ثالثة، فخرجت منها شرارة، فكبر وكبر وراءه الصحابة، وانكسرت الصخرة. فقال الصحابة: يا رسول الله، لماذا كبرت ثلاثاً أثناء ضربك الصخرة بالمعول؟ قال ﷺ: لقد رأيت عند الشرارة الأولى في حالة من الكشف قصور قيصر الرومي، ووُضعت مفاتيحها في يدي. ولما ضربت الصخرة ثانية أُرِيتُ قصور المدائن، ووُضعت مفاتيح دولة الفرس في يدي. وعندما ضربتها للمرة الثالثة أُرِيتُ أبواب صنعاء، ووُضعت مفاتيح دولة اليمن في يدي. فأمنوا بما يعدكم الله تعالى به، وأيقنوا بأن العدو لن يضركم شيئاً، فإن الله تعالى سيهزمه، ويكتب لكم الفتح يقيناً.*

* ورد في الحديث: "عن البراء ابن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق. قال: وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول. قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ وقال: عوفٌ وأحسبه قال: وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: بسم الله، ف ضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام. والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا. ثم قال: بسم الله، وضرب أخرى،

وبحسب هذا الوعد كتب الله للمسلمين فتوحات كثيرة، فدكّوا ممالك قيصر وكسرى دكّا، وأخذوا قصورهم وبساتينهم وجواهرهم وكنوزهم النادرة. وكان من بين غنائم هذه الفتوحات منديلٌ كان كسرى ملك الفرس يستعمله وهو جالس على العرش. فأعطي أبو هريرة رضي الله عنه هذا المنديل. وذات يوم كان صلى الله عليه وسلم مصاباً بالزكام فسعل، فأخرج منديل كسرى من جيبه وبصق فيه، ثم لم يملك نفسه وقال: بَخِ بَخِ أبو هريرة.. أي ما أعظمتك شأنًا يا أبا هريرة. فسأله بعض من حوله من المسلمين الجدد: لما قلت هكذا يا أبا هريرة؟ فقال: تذكرتُ ذلك الزمن الذي كنتُ لا أجد ما أكله أيامًا، فكان يغمى عليّ من شدة الجوع، وكان الناس يظنون أنه قد أصابني نوبة من الصرع. فكانوا يضربون رأسي بالنعال وفق عادة العرب علاجًا لهذا المرض، مع أنه لم يكن بي صرع ولا أي مرض آخر، إنما كان وراءه الجوع الشديد. أما اليوم فببركة تصديقي للرسول صلى الله عليه وسلم تراني فيما أنا فيه، حيث أسعل في منديل كسرى ملك الفرس. (البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحض على اتفاق أهل العلم)

وعندما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر مهاجرًا إلى المدينة، جعل أهل مكة جائزة مئة ناقة لمن يلقي القبض على النبي صلى الله عليه وسلم. فخرج كثير من الناس يبحثون عن النبي صلى الله عليه وسلم طمعًا في الجائزة، وكان من بينهم رئيس بدوي يدعى سراقه بن مالك. فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم لم يملك نفسه من شدة الفرحة ظنًا منه أنه سيلقي الآن القبض على النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن الله تعالى أراد أن يُري سراقه آيةً، فلما اقترب منه صلى الله عليه وسلم كبا فرسه وسقط

فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر، أُعطيَتْ مفاتيح فارس. والله إني لأبصرُ المدائنَ وأبصرُ قصرها الأبيض من مكاني هذا. ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أُعطيَتْ مفاتيح اليمن. والله إني لأبصرُ أبواب صنعاء من مكاني هذا. (مسند أحمد، المجلد الرابع ص ٣٠٣). وفي رواية: "أرأيناك تكبر فكبّرنا بتكبيرك؟ قال: إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام... إلخ". (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية مجلد ٢: غزوة الخندق) (المترجم)

على الأرض. ويحكي سرقة قصته بنفسه بعد أن أسلم فيقول: لما كبا فرسي تفاءلت بالسهم كعادة العرب لأعرف هل أستمر في مطاردته أم لا؟ فخرج السهم يأمرني بترك مطاردته. ولكني ركبتُ الفرس ثانية طمعاً في الجائزة، وركضت وراء النبي ﷺ؛ ولما دنوت منه كبا فرسي ثانية وسقطتُ، ووجدت الفرس قد غاص في الرمال حتى صعب علي إخراجة. فأدركتُ أن الله مع هذا الإنسان. كنتُ خرجتُ لألقي القبض على النبي ﷺ ولكني الآن صرتُ أسيرَ حبه. فتقدمتُ إليه ﷺ بكل احترام وتواضع وقلت له: لقد جئتُ وراءكم بنية سيئة، ولكني قد تراجعْتُ الآن عما أردتُ، وها أنا راجع لأني على يقين أن الله معكم. ولما همَّ بالعودة كشف الله على النبي ﷺ ما سيقع بسراقة في المستقبل فقال ﷺ له: يا سراقة، كيف أنت إذا وضعتُ سوار كسرى الذهبية في معصمك؟ فقال سراقة في حيرة: سوار كسرى بن هرمز ملكِ الفرس؟ قال النبي ﷺ: نعم. فرجع وقد بلغت منه الحيرة كل مبلغ. ولكن انظر إلى قدرة الله تعالى، فإن خيول المسلمين داست عاصمة كسرى بسنابكها في عهد عمر ﷺ ووقعت كنوز كسرى في أيديهم بما فيها تلك الأسورة الذهبية المرصعة بالآليء والجواهر التي كان كسرى يلبسها وقت جلوسه على العرش. ولما جيء بها إلى عمر ﷺ تذكر ما أنبأ به الرسول ﷺ، وأمر بإحضار سراقة. فلما جاءه قال له: البس أسورة كسرى هذه. قال سراقة: أليس لبس الذهب حراماً على الرجال، يا أمير المؤمنين! قال: بلى، ولكن ليس في هذه المناسبة. لقد أرى الله تعالى نبينا المصطفى ﷺ هذه الأسورة في معصمك، فلا بد لك أن تلبسها ولو لدقيقة ليتحقق نبأ رسولنا الكريم ﷺ. فأخذ سراقة السوار ووضعها في يده، وهكذا رأى المسلمون هذه النبوءة العظيمة للرسول ﷺ تتحقق أمام أعينهم. (أسد الغابة: المجلد الثاني ص ٢٦٥-٢٦٦: سراقة بن مالك، والسيرة الحلبية الجزء الثاني: باب الهجرة إلى المدينة)

إذاً، فإن الله تعالى قد وهب للمسلمين بساتين وقصور الجزيرة العربية والعراق والشام وفارس، وفق ما أنبأ في قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.

بيد أن هناك ظاهراً لكل باطن. فكما أن هذه الآية تضمنت وعداً بأن المسلمين سينالون البساتين والقصور المادية، كذلك كان فيها وعدٌ بأن الله تعالى سيهب لهم بساتين وقصوراً روحانية أيضاً. فتحقق هذا الوعد في ظاهره في عهد حكمهم بشكل رائع، حيث بنوا زمن ازدهارهم قصوراً فخمة وبساتين عظيمة لا تزال تذكيراً لهم في الدنيا حتى اليوم. أما البساتين الروحانية فكان الله تعالى قد قال لرسوله بصدها إن هؤلاء يطالبونك اليوم ببستان خضر نضر، ولكن البستان المادي يجف ويذبل ويصبح خراباً؛ فتارة لا يُثمر لعدم صلاح التربة، وتارة أخرى تجف أشجاره لشح الماء، وحيناً تهاجمه الأمراض فتتلف أثماره، وحيناً آخر تهب عليه العواصف فتسقط أزهاره. ولكننا سنعطيك بساتين تجري من تحتها الأنهار.. أي أنها لن تجف أبداً، بل ستظل مخضرة نضرة تهيء للعيون طلاوة وللقلوب بهجة، فتكشف على العالم دوماً حقانية الإسلام وصدقك.

والتدبر في القرآن يكشف لنا أن الله تعالى قد جعل نبينا ﷺ مثيلاً لموسى عليه السلام حيث قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمل: ١٦). فالرسول ﷺ مثل لموسى وأتمته مثيلة للأمة الموسوية. ويتضح من دراسة القرآن الكريم أن الله تعالى قد وهب لبني إسرائيل بستانين؛ بستاناً موسوياً وبستاناً عيسوياً، وقد أشار الله إليهما في قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٣﴾ كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (الكهف: ٣٣-٣٤).. أي اذكرُ أمامهم مثال رجلين - أي مثال المسلمين وأهل الكتاب - أعطينا أحدهما أي موسى بستانين من أعناب وجعلنا حولهما سياجاً من نخل، وجعلنا بين هذين البستانين زرعاً. وبالفعل قد ازدهر البستان الموسوي والبستان العيسوي، ولكن كانت بينهما فترة هي بمثابة زرع حيث دمّر "نبوخذنصر" اليهود وهدم معابدهم وأخذهم معه أسرى. فكان في هذه الفترة خطر القضاء على قوم موسى حيث كانت تماثل زرعاً مهدداً بأن تأكله غنم القوم، أي أن تهجم عليه الأمم وتسلبه.

وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه سيأتي على أمته أيضا ما أتى على هؤلاء القوم، ذلك لأن كون الرسول ﷺ مثيلا لموسى عليه السلام يتضمن إشارة إلى أن أمته ستمرّ بمثل ظروف أمة موسى عليه السلام.. أي أن النبي ﷺ أيضا سيُعطي بستانين: أحدهما ذلك البستان الذي ستتشر فيه فيوض نبوة محمد ﷺ في الدنيا مباشرة بدون الاستعانة بأي مأمور آخر، ولكن عندما يصاب المسلمون بالضعف سيقم الله تعالى فيهم مسيحا محمديا كما أقام مسيحا موسويا في أمة موسى؛ وستكون جماعة المسيح الحمدي بمثابة بستان ثان لمحمد رسول الله ﷺ. بيد أن جماعته ستدعى أمة المصطفى ﷺ كما أن بستانه يسمى أيضا بستان محمد ﷺ. ولكن هناك فرق وهو أن المسيح الناصري الذي وُضع به الأساس للبستان الثاني (المسيحية) من الأمة الموسوية، كان نبيا مستقلا، ولكن لما كان محمد ﷺ أفضل من موسى فالمسيح الموعود الذي يوضع به الأساس للبستان الحمدي الثاني سيكون نبيا تابعا من أمة المصطفى ﷺ، كما أن أتباعه سيكونون ضمن أمة المصطفى ﷺ. وبالفعل قد أُعطي الرسول ﷺ بستانين: بستانا بظهوره هو ﷺ، وبستانا بظهور خادمه المسيح الموعود عليه السلام.

ومن الناحية المادية أيضا قد أُعطي النبي ﷺ في العصر الإسلامي الأول نفس البستان الذي سبق أن أُعطي لأمة موسى عليه السلام، أعني بلاد فلسطين وكشمير، وكلتا المنطقتين شهيرتان بكثرة البساتين. فعندما ذهبتُ إلى أوروبا عام ١٩٢٤م زرت فلسطين أيضا، وذهبت من دمشق إلى بيروت بالقطار أيضا. ولما مرّ القطار داخل بيروت رأيتُ حدائق صغيرة في كل بيت. كما رأيت في دمشق أيضا جداول وحدائق صغيرة في كل بيت. ونفس الحال بالنسبة لكشمير، حيث تجد البساتين في كل مكان، بعضها بريّة وبعضها قد زرعها الملوك المغول. لا شك أن البستان الحمدي المادي الأول - أي كشمير - يقع حاليًا في قبضة الهندوس، والبستان الحمدي المادي الثاني - أي فلسطين - يقع في قبضة اليهود ولكن الله تعالى سيرجعهمما بفضله إلى محمد رسول الله ﷺ تارة أخرى، كما أن الله تعالى سيرجع هذين البستانين إليه ﷺ من الناحية الروحانية أيضا، أعني سيجعل الله تعالى اليهود أيضا مسلمين، وسيدخلون في جماعة أتباع محمد رسول الله ﷺ، وبدلاً من أن

يضطر المسلمون للهجوم على فلسطين بالمدافع والبنادق، سيفتح اليهود بأنفسهم أبواب بيت المقدس للمسلمين، ويقولون أيها المسلمون نحن أيضا إخوانكم، تعالوا إلينا، مرحبا بكم. وستنضم إلينا أمة المسيح الموسوي أيضًا وتدخل في الإسلام، وتصبح جزءاً من البستان المحمدي.

الطريف في الأمر أن الناس ظلوا يزرعون البساتين، ولكنها صارت للرسول ﷺ في نهاية المطاف. لقد صنع موسى ﷺ الأمة اليهودية ببذل جهد كبير، وأسكنهم في فلسطين، فوهب الله تعالى فلسطين مع أهلها لمحمد رسول الله ﷺ. ثم هاجر قوم موسى ﷺ إلى كشمير فأعطى الله محمداً ﷺ كشمير مع أهلها. والآن هذا البستان الذي أعدّه المسيح الموعود ﷺ هو للرسول ﷺ أيضاً، حيث لا يقوم الدعاة الأحمديون بالدعوة في كل أنحاء العالم ولا يضمّون الناس إليهم إلا تحت شعار "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ولا يقولون لهم أبداً أن يقولوا "لا إله إلا الله المسيح الموعود رسول الله"، ذلك لأنهم يدركون أن المسيح الموعود ﷺ ليس إلا خادماً تابعاً لمحمد ﷺ، وليس بنبي مستقل، بل إن اعتباره نبياً مستقلاً كفر. وهذا يعني أن الدعاة الأحمديين كلما وجدوا شجرة روحانية أتوا بها وغرسوها في بستان محمد ﷺ. لقد نبتت في البستان الموسوي شجرة كبيرة واحدة اسمها داود ﷺ، ولكن هذه الشجرة من البستان المحمدي - أعني المسيح الموعود ﷺ - يعلن أنني لست بشجرة داوودية وحيدة في بستان محمد فحسب، بل سيخرج من ثماري بذور كثيرة تتحول إلى أشجار داوودية كثيرة؛ وهكذا يمتلئ البستان المحمدي بآلاف الأشجار الداوودية. يقول المسيح الموعود ﷺ في بيت شعر له بالأردنية:

اک شجر هوں جس کو داؤدی صفت کے پھل لگے

میس ہوا داؤد اور جالوت ہے میرا شکار

(براهین أحمدیہ، الجزء الخامس، الخرائن الروحانية المجلد ٢١ ص ١٣٣)

أي أني شجرة من بستان محمد رسول الله ﷺ، وأحمل ثماراً داوودية الصفة..

بمعنى أني لست أنا داود فقط، بل سيخرج من أتباعي آلاف مثل داود ﷺ.

ويقول عليه السلام أيضاً:

میں کبھی آدم کبھی موسیٰ کبھی یعقوب ہوں
نیز ابراہیم ہوں نسلیں ہیں میری بے شمار

(المرجع السابق)

أي إذا كان موسى وعيسى - عليهما السلام - يفخران بعدد بني إسرائيل، فإن الله تعالى سيهب لمحمد عليه السلام بواسطتي أجيالاً كثيرة لينتشر بستان محمد عليه السلام في كل شبر من الأرض.

لقد أرانا الله تعالى سنته هذه في زمن الرسول عليه السلام أيضاً، فنزع الأشجار التي زرعها الآخرون وغرسها في بستانه عليه السلام. فمثلاً نزع عكرمة الذي كان شجرة في بستان أبي جهل وزرعها في بستان محمد عليه السلام. كذلك كان الوليد والعاص* بن وائل من كبار أعداء النبي عليه السلام، فنزع الله خالد بن الوليد من بستان أبيه وغرسه في بستان محمد عليه السلام حتى يفتخر العالم الإسلامي كله اليوم بالمواقف البطولية لهذا القائد الباسل العظيم خالد بن الوليد. لقد كان شجرة في بستان عدو لمحمد عليه السلام، ولكنها أثمرت في بستان محمد عليه السلام. لقد كان من قبل ابناً لأحد رؤساء مكة، ولكن ملوك الروم والفرس أخذوا يستظلون بظله بعد أن زرع في بستان محمد عليه السلام.

وكانت في بستان محمد عليه السلام أشجار أخرى قد غرسها بنفسه مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين. كان هؤلاء يجلسون في حجرة طينية صغيرة، ولكن قيصر كان يصاب في قصره بذعر شديد بسماع أسمائهم، كما كانت فرائص كسرى ترتعد خوفاً منهم وهو على مسافة آلاف الأميال منهم.

كذلك زُرعت في البستان المحمدي شجرة الحسن البصري، وشجرة الجنيد البغدادي، وشجرة سيد عبد القادر الجيلاني، وشجرة شبلي، وشجرة محيي الدين

* يبدو أن حضرة المفسر عليه السلام كان يريد أن يذكر هنا الصحابي الجليل عمرو بن العاص أيضاً مع ذكر خالد بن الوليد - رضي الله عنهما - ولذلك ذكر اسم العاص بن وائل والد عمرو، ولكن فاتته ذلك. والله أعلم بالصواب. (المترجم)

ابن عربي، وشجرة الإمام الغزالي، وشجرة ابن القيم، وشجرة شهاب الدين السهروردي، وشجرة بهاء الدين النقشبندي، وشجرة معين الدين الچشتي، وشجرة سليم الچشتي، وشجرة قطب الدين البختيار كعكي، وشجرة فريد الدين شكرغنج، وشجرة نظام الدين أولياء، وشجرة الباقي بالله، وشجرة داتا غنج بخش، وشجرة أحمد السرهندي، وشجرة الشاه ولي الله الدهلوي، وشجرة الخواجه محمد مير ناصر، وشجرة السيد أحمد البريلوي رحمة الله عليهم أجمعين. وفي الأخير ولحماية البستان المحمدي عُرسَتْ فيه شجرة المسيح الموعود ﷺ التي أراد المسلمون لسوء حظهم أن يقطعوها لكي يجوس العدو خلال البستان المحمدي ويدمره، ولكن هذه الشجرة كانت عظيمة جدا فقالت:

اے آنکہ سوئے من بدویدی بصد تبر

از باغبان بترس کہ من شاخ مشرم

(إزالة أوهام، الخزائن الروحانية المجلد الثالث ص ١٨١)

أي يا من تعدو إلي حاملاً مئات الفؤوس، خَفَ اللهُ صاحبَ البستان، لأنني غصن مشرم، ولو قطعني سيصبح بستان محمد دون ثمار وبدون سياج. فاعلم أنك لا تحاول قطعي، بل تحاول تخريب بستان محمد ﷺ. وإن الله لن يتحمل تخريب بستان محمد ﷺ، بل سوف يحميه يقيناً. وبالفعل قد نزل الله من السماء لحماية المسيح الموعود ﷺ. وبرغم أن المشايخ كلهم صالوا عليه كصولة رجل واحد، إلا أن الله تعالى وقف أمامه كالترس وقال: لن أسمح لأحد بتخريب بستان محمد. فأفشل هجمات المعارضين كلها. فتبارك الله الذي وهب لمحمد رسول الله ﷺ خادماً مثل المسيح الموعود الذي عندما وجد بستان محمد ﷺ عرضة للتخريب حتى كاد يصبح كزرع صغير، فإنه بدّله إلى بستان مخضّر نضّر مرة أخرى، ونشر حُماة هذا البستان في كل أنحاء العالم، لكي يذهبوا إلى كل بلد وقطر وقوم وينزعوا أشجار البستان العيسوي من كل بقعة من بقاع الأرض ويغرسوها في بستان محمد ﷺ، وينزعوا أشجار بستان موسى ويزرعوها في بستان محمد ﷺ، لتُزرع بساتينه

ﷺ في كل مكان من الأرض، ولكي يوفَّق بنو إسرائيل - الذين لم يُسلموا في العهد الأول للإسلام - للدخول فيه على يد هذا الموعود الأخير، وينتهي نزاع اليهودية والمسيحية للأبد، فلن يكون في العالم إلا الإسلام أو محمد ﷺ فقط.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.. أي لا يعطيك قصرًا واحدًا، بل يعطيك قصورا كثيرة، أي يهب لك تلاميذ يردُّون هجمات الأعداء عن حياض الإسلام، ويكشفون جماله للعالم. ورد في التاريخ أنه لما توفي الجنيد البغدادي - رحمة الله عليه - حضر جنازته أحد المجاذيب من الصوفية، وأخذ يبكي ويردد الأبيات التالية:

وأسفا من فراق قومٍ همُّ المصايح والحصونُ
والمدنُ والمزنُ والرواسي والخيرُ والأمنُ والسكونُ
لم تتغير لنا الليالي حتى توفَّتهم المنونُ
فكلُّ جَمْرٍ لنا قلوب وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، المجلد السابع: ذكر من اسمه الجنيد)

أي أن الموت قد فصلَ عنا قومًا كانوا نبراس الهدى لنا في الظلمات، وحصونًا لنا وقت المصائب، ومدنًا لنا لكونهم مجمع الفيوض والبركات، ومطرًا من الأنوار الربانية والنعم الروحانية، وكانوا جبالًا شامخات لعلوِّ عزائمهم وصمودهم أمام عواصف المحن، وكانوا سبب خير وأمن وراحة للعالم كله. لقد هاجمنا الدهر بقلاقله بعد أن فرَّق الموتُ بيننا وبينهم، فقلوبنا تحترق كالجمر، وعيوننا تسيل كالماء المنهمر حزنًا على فراقهم.

هذه الأبيات تبين لنا أن الإنسان الكامل أيضًا يسمى حصنًا وقصرًا لأنه سبب حماية للعالمين. إذا، فالله تعالى يقول هنا لرسوله ﷺ إن هؤلاء يطالبونك بكنوز الدنيا والقصور المادية والشوكة الظاهرة، وإننا قد أعددنا لك قصورا عالية تفوق تصورهم. أي جعلنا لك تلاميذ أفذاذا وأولياء كبارًا سيتقدمون المسلمون دائمًا تحت رعايتهم.

وقد بعث الله تعالى بحسب هذا الوعد على رأس كل مئة سنة صلحاء وأولياء وأبدالاً وأقطاباً ومجددين، فدادوا عن حياض الإسلام ضد أنواع الهجمات الداخلية والخارجية، وتعهدوا بستان محمد المصطفى ﷺ كخدام متواضعين، وقضوا أعمارهم في العناية بأزهاره وأثماره. فحتى اليوم تجد في مقابر كل قرية أو مدينة إسلامية مزاراً لأحد أولياء الله تعالى الذي أقام في منطقته عظمة الإسلام ومحمد ﷺ، وتمع أهلها بالبركات الإسلامية. ولو أحصينا هؤلاء الأبرار لتجاوز عددهم مئات الآلاف يقيناً.

ولكنك لن تجد أي ديانة في العالم اليوم يستطيع أتباعها أن يقدموا من بينهم أحداً حظي بقرب الله تعالى عملاً بدينه، أو بعثه الله تعالى لتجديد دينه وإشاعته. وهذه الشهادة الإلهية العملية لدليل ساطع على أن الله تعالى قد تخلى عن جميع الأديان الأخرى، وقد خص الإسلام وحده لمحبتته وقربه. فلن يحظى الآن أحد بقرب الله تعالى إلا إذا اقتطف الثمار من بستان محمد ﷺ، ولن يختار تعالى لإصلاح خلقه إلا من يقوم بحماية بستان محمد ﷺ كخدام متواضع، لأن جميع البساتين الأخرى قد جفت وبيست، فلم تعد هناك حاجة إلى أي بستانٍ يعتني بها، إلا بستان محمد ﷺ. فلا توجد الآن الأشجار الخضراء التي تحمل كل نوع من الأزهار والأثمار إلا في بستان محمد ﷺ، الذي قد أراد الله تعالى له أن يبقى مخضراً نضراً على الدوام، وأن يبعث تعالى من عنده من يعتنون به ويحمونه إلى يوم القيامة.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٢﴾

إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِذَا أَلْقَاوُا

مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ

ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

زفيراً: الزفير تردُّدُ النفسِ حتى تنفتح الضلوع منه (المفردات). الزفير: الداهية؛ وأوَّلُ صوتِ الحمار، والشهيقُ آخرُه (الأقرب).

مقرَّنين: قرَّنتِ الأسارى في الحبال أي جمَّعت (الأقرب).

ثُبُورًا: ثَبَرَ ثُبُورًا: هَلَكَ وَثَبَرَ اللهُ زَيْدًا: أَهْلَكَهُ إِهْلَاكَ دَائِمًا لَا يَنْتَعِشُ بَعْدَهُ. والنصب في قوله ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ على المصدر كأَنَّهُمْ قَالُوا ثَبَّرْنَا ثُبُورًا (الأقرب).

التفسير: بيَّن اللهُ تعالى هنا أن هؤلاء لا يؤمنون بالثواب والعقاب أصلاً، وإلا لَمْ يَشْكُوا فِي غَلْبَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ رُؤْيَةِ أَحْوَالِهِ، وَالآنَ سَيُرُونَ ازْدَهَارَهُ وَيَحْتَرِقُونَ كَمَدًّا. عندما ستراهم - من مكان بعيد - الجحيمُ التي سيُشعلها اللهُ تعالى في قلوبهم يدركون أنه لا مهرب لهم منها.

لقد نسب اللهُ تعالى في قوله ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فِعْلَ الرُّؤْيَةِ إِلَى الْجَحِيمِ، وَلَكِنِ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وهذا الأسلوبُ يسمَّى في العربية "تقليب النسبة"، ومثاله قولنا "النهر يجري"، مع أن الماء هو الذي يجري في النهر، أو يقولون: تدور الشمس حول الأرض، مع أن الأرض هي التي تدور حول الشمس. فالمراد من قول الله تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ وَإِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أَنَّهُ حِينَ تَنْتَهِيْ لَهُمْ أَسْبَابُ الْجَحِيمِ سَيَدْرِكُونَ أَنَّ فِرَارَهُمْ مِنْهَا مُسْتَحِيلٌ، وَعِنْدَمَا يُلْقَوْنَ فِيهَا.. أَي حِينَ يَلْتَاعُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ بِرُؤْيَةِ رَقِيِّ الْمُسْلِمِينَ يَصْبِحُونَ وَكَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مَكْبَلَةٌ، وَلَنْ يَقْوُوا عَلَى الْمَقَاوِمَةِ، وَسَتَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، فَيَحَاوِلُونَ الْفِرَارَ كَمَا حَاوَلَ عِكْرَمَةُ الْفِرَارَ إِلَى الْحَبْشَةِ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ (الطبري: ذكر الخبر عن فتح مكة)،

ولكنهم لن يجدوا مهرباً، لأنهم حيثما يذهبون يجدون المسلمين غالبين. فيدعون الله تعالى قائلين: يا رب، أمتنا حتى لا نرى غلبة المسلمين، فتقول لهم ملائكة السماء: تطلبون موتاً واحداً، ولكنكم ستذوقون موتاً تلو الموت.. أي ستعرضون للمزيد من العذاب وتتضايقون أكثر وأكثر، لأن الله تعالى قد قرر أن ينال المسلمون رقياً بعد رقي، ويصاب الكافرون بضعف بعد ضعف.

واعلم أن المراد من الساعة في هذه الآيات هو ساعة غلبة محمد ﷺ ونجاحه، ذلك لأن أولي العزم من الرسل كلهم يكونون بمنزلة القيامة للدينا، إذ يأتون بنظام جديد مكان النظام السابق، ويهدمون البناء القديم لينبؤا عليه بناءً جديداً، وتظهر في زمنهم علامتان من علامات يوم القيامة وهما: هلاك أهل زمنهم وإحيائهم من جديد بشكل رائع. فتقوم القيامة على أيدي هؤلاء الأنبياء من حيث إن الله تعالى يكتب لجماعتهم الغلبة والرقي في الدنيا ويحييهم حياة جديدة، كما تقوم هذه القيامة من حيث إن الله يهلك على أيديهم أعداءهم. فكأن الله تعالى يقيم على أيدي أنبيائه حشراً في الدنيا، فيحيي الأموات من جهة، ويهلك الآخرين بعذابه من جهة أخرى. وهذا هو معنى القيامة في الحقيقة: أي حشرٌ وهلاكٌ، إذ ليست القيامة إلا أن الناس سيهلكون في يوم من الأيام، ثم يُبعثون إلى الحياة ثانية. وكلما بُعث في الدنيا نبي ظهرت على يده كلتا العلامتين، حيث هلكت بسببه فئة من الناس، كما أُعيدت الحياة إلى فئة أخرى. فالذين كانوا أعداءً للأنبياء هلكوا كقوم، أما أتباع الرسل فتقدموا وازدهروا كمشعب.

إذاً، فالمراد من الساعة هنا هو ذلك اليوم الذي انتصر فيه النبي ﷺ وانهمز الكافرون، وحين رأت الدنيا مشهداً عجيباً، فإن الذي كان يمشي في شوارع مكة وحيداً طريداً عديم الحيلة قد أصبح حاكماً وملِكاً، بينما أصبح الملوك عبيداً محكومين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً﴾.. أي قد أعدنا للذين يكفرون بمحمد ﷺ ويستبعدون نجاحه ناراً ستحوّلهم رماداً. وقد أعد الله تعالى لهم هذه النار من حيث إن الدين الذي كانوا يسعون للقضاء عليه ليل نهار، قد دخل

فيه أبنائهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، حتى خرج الإسلام من مكة وانتشر في أنحاء الجزيرة العربية كلها، ثم خرج منها وشاع في العالم كله. فبإمكانك تقدير مشاعر الغضب والحسرة والألم التي كانت تحرق قلوبهم وتحولها رمادًا حين كانوا يرون أبنائهم وأحفادهم يدخلون في الإسلام شاهدين أن "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وقد أحرقت النيران قلوبهم بطريق آخر وهو أن يد القدرة الربانية القوية أخرجت كبار زعمائهم من بيوتهم إلى ميدان بدر، وأهلكتهم على يد فتية من المسلمين الذين لم تكن عندهم خيرة قتالية ولا أسلحة تذكر. حتى صار كل بيت في مكة مأتمًا، وانكسر العمود الفقري للكافرين. كان أبو جهل قائدهم الشهير، فهجم عليه ولدان أنصاريان، فأصاباه بجراح بالغة، فسقط في ميدان بدر، فاستولى الرعب على الكافرين، ففروا إلى مكة تاركين وراءهم قائدهم مضرًا بدمائه. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد رأيت بعد المعركة أبا جهل يئن من شدة جروحه، فذهبت إليه وقلت: كيف تجددك الآن؟ قال: إني لا أحزن لموتي إذ لا بد لكل محارب من الموت في يوم من الأيام، إن ما يجزني أن ولدين أنصاريين من المدينة صرعاني. فاعمل بي معروفًا واقطع رقبتي بسيفك لتنتهي معاناتي. ولكن اقطع رقبتي طويلا لأن رقاب القواد هكذا تُقطع. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: فقلت له: لن أحقق لك حسرتك هذه أيضا، بل سأقطع رقبتك قريبًا من الذقن. فحز رأسه بالسيف. (السيرة الحلبية الجزء الثاني: غزوة بدر الكبرى)

فترى كم كانت شديدة تلك الجحيم التي كان أبو جهل يحترق فيها حيث قتله صبيان مدنيان عديمي الخبرة في القتال. ثم لم تتحقق أمنيته الأخيرة قبل الموت، وقطعت رقبته قريبًا من الذقن.

ولم تحرق هذه النار أبا جهل فحسب بل وصل لهيبتها إلى كل بيت في مكة، وأحرقت كل كافر عابد للأصنام. فلقد ورد في التاريخ أن الحزن والألم قد بلغ بأهل مكة مبلغًا عظيمًا، حتى فكروا أن إقامة المأتم لقتلهم سيلطخ سمعتهم كلية. فقرر زعمائهم بالتشاور بأن لا يقيم أحد من أهل مكة مأتمًا على قتلى بدر وإلا سيقاطعونه ويطردهونه من بينهم ويغرمونه. علمًا أن العرب كانوا شعبًا قبليًا،

والمعروف أن الحميّة القومية تكون على ذروتها عند الشعوب القبليّة، فكان من المستحيل أن يخالفوا هذا القرار.

فتوقفت الشكالي عن البكاء والحزنُ يفلقُ أكبادهن، وكبت الآباء مشاعرهم والألم يعتصر قلوبهم، وجلس الصغار واهمين دون البكاء والعيول. ذلك لأن شعبهم قد قرر أن لا يبكي أحد على قتلاه لئلا يشمت بهم محمد (ﷺ) وأصحابه، ولا يقولوا أنهم قد ألحقوا بهم هزيمة نكراء. كانت قلوبهم تحترق كمداء، وكانت صدورهم تلتهب نارا، وكانت أكبادهم تنفلق حزناً، وكان الواحد منهم يغلق على نفسه الباب ويندب موتاه بصوت خفي كي لا يطلع الآخرون على بكائه، ولكن أنى لهذا البكاء أن يجلب له السكينة. ذلك أن الإنسان إذا أصابه حطبٌ يريد أن يعزیه غيره؛ فتحب الزوجة أن يعزیه زوجها، ويحب الأب أن يشاطره ابنه حزنه، ويحب الابن أن يواسيه أبوه في مصابه، ويود الجار أن يشترك جاره في همومه، وأن يقام هناك مآتم كبير يثير مشاعر المئات والآلاف. فكان الجميع يريدون أن يواسي بعضهم بعضاً، حتى تخف صدمتهم وآلامهم، فما كان بكاء الواحد منهم في انفراد بعيداً عن أعين الآخرين يجلب له أي سكينة وسلوان. ولكن القرار الذي اتخذته زعمائهم ظل قائماً، ولم تزل النيران المكبوتة في صدورهم تضطرم وتضطرم. وبعد انقضاء شهر على هذا الوضع مرّ بهم أحد المسافرين قد ماتت ناقته في الطريق، فكان يصرخ ويبكي حزناً عليها ويقول: يا ويلتاها، يا ناقتها. ففتح شخص عجوز باب بيته وخرج إلى الشارع، وأخذ يصرخ ويقول: تسمحون لهذا أن يبكي على موت ناقته، ولا تسمحون أن أبكي على موت اثنين من أولادي قتلا في بدر؟ وكان هتاف هذا العجوز بمثابة شرارة أضرمت النار في قلوب أهل مكة. فلم يبال أحد منهم بالقانون ولا القرار ولا بالتهديد بالمقاطعة الاجتماعية، وفتح الجميع أبوابهم، فأخذت نساؤهم وأطفالهم يبكون ويندبون موتاهم في شوارع مكة. (السيرة النبوية: الجزء الثاني: غزوة بدر، نواح قریش على قتلاهم)

كم كانت مخيفة هذه النيران التي شوت أكباد أعداء الرسول ﷺ، وكسرت شوكتهم وهيبتهم ورعبهم!

وقد أعد الله تعالى هذه النار للكافرين بشكل آخر، وذلك أن الإسلام جاء بشرع متكامل جامع، وكان الكفار محرومين كلية من أي شرع مثله. وعندما كانوا يرون البون الشاسع بين دينهم والإسلام كانوا يحترقون كمدا ويقولون: لا يوجد في ديننا أي شيء يُذكر. ليت عندنا مثل تعليم الإسلام لنفتخر به. فقد ورد أن يهوديا جاء عمر رضي الله عنه وقال: لو أنزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يوم نزولها عيداً يعني قول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. فقال له عمر رضي الله عنه: كان لنا يوم نزول هذه الآية عيدان: يوم الجمعة ويوم الحج (الترمذي: أبواب التفسير، سورة المائدة). وهناك رواية تشير إلى أن حادثاً مماثلاً حدث مع ابن عباس، فأجاب نفس الجواب. (المرجع السابق)

مجمل القول إن الكافرين حين يرون شمولية تعاليم الإسلام فلا يملكون إلا أن يحترقوا حسداً وعداءً وحسرةً. وهذه النيران نفسها تحرق أعداء الإسلام اليوم أيضاً. وعلى سبيل المثال، لو قال يهودي لبعض المسيحيين اليوم: أليس إلهك الذي ألبسناه إكليلاً من الشوك وعلّقناه على الصليب ذليلاً مهاناً؟ فبوسع المرء أن يقدر النيران التي ستشتعل في قلب هذا المسيحي والآلام التي سيقاسيها. كذلك عندما ينكشف على عبدة الأصنام عجزها فإنهم يلعنون أنفسهم ويقولون: كيف نسجد أمام هذه الأصنام ونحن أشرف المخلوقات وهي جماد محض. كذلك حين يقرأ المسلم في القرآن الكريم أن الذين يؤمنون بالله تتنزل عليهم الملائكة ويُشرفهم الله تعالى بكلامه، فلا بد وأن يقفز قلبه فرحاً بأن طاعته لأحكام الإسلام ستجعله مقرباً لدى الله تعالى. ولكن المؤمن بكتاب الفيذا الهندوسي حين يعلم بقراءة كتابه بأن الله لن

يشرفه بكلامه أبداً، فلا بد أن يصاب بإحباط شديد ويقول في نفسه: لماذا لا يكلمني الله تعالى كما كان يكلم "الريشيين" *؟ لماذا يعاملني كما يعامل أحد ربيبه؟ ونفس الحال بالنسبة لعقيدة الفداء المسيحية وعقيدة "نيوگ" ^١ الهندوسية، فإنهم يتعرضون لخرج وندم شديدين كلما انتقدناهما خلال المناظرات، حيث تستيقن قلوبهم بفضل تعاليم الإسلام وإن لم يعترفوا بذلك بأفواههم. وقد أشار الله تعالى إلى حالة قلوبهم في مكان آخر من القرآن الكريم حيث قال ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٣).. أي يقول الكافرون مرارا بكل حسرة: يا ليتهم كانوا من المؤمنين بهذه الأحكام حتى لا يتعرضوا للندامة التي تلازمهم دائماً. وعندما تحيط بهم المشاكل بشأن الطلاق والخلع وزواج الأرامل وتقسيم الإرث وغيرها من القضايا، ويعانون من المفسدات المدنية والاجتماعية، فلا يملكون إلا أن يعترفوا بفضل تعاليم الإسلام. كان السيد وليام ميور عدواً لدوداً للإسلام، ولكنه يكتب بكل حسرة وهو يتحدث حول إمكانية المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس:

"إن المقارنة بين كتاب المسلمين غير المحرف وبين النسخ المختلفة لأسفارنا تماثل المقارنة بين شيئين لا مماثلة بينهما". (The Life Of Mahomet, P.558)

قصارى القول إن الله تعالى قد أعدّ للذين يكفرون بتعاليم الرسول محمد ﷺ ناراً يحرقهم لهيها كل حين. وكلما يرون رقيماً جديداً للإسلام تزداد هذه النار في قلوبهم اشتعالاً وحرقة.

* الريشيون هم أربع شخصيات نزل عليها كتاب الهندوس "الفيدا" في بداية الكون حسب اعتقادهم. (المترجم)

^١ "نيوگ" تعليم هندوسي يأمر الزوج غير القادر على إنجاب الأولاد الذكور أن يبعث زوجته إلى أحد البراهمة - وهم رجال دينهم - ليباشر زوجته حتى تلد له الأولاد الذكور، وعلى الهندوسي أن يدفع نفقات الأكل والشرب للبرهمن في تلك الفترة. (المترجم)